القسم الثانى

مفاهـــيم مغـــلوطـة

١ ـ التديـن المنقـوص .

٢ ـ الفهم المغلوط للدين .

٣ ـ الإسلام والإرهـاب .

٤ ـ تجارة الشعارات الدينية .

٥ ـ تغييب العقل .

٦ ـ التكافل الاجتماعى وهرم الأولويات المقلوب .

٧ ـ احتكار الدين .

obeikandl.com

obeikandl.com

(١)

التـــديـن المنقـــوص (*)

يشهد « شهر رمضان » من كل عام حماسًا دينيًا متزايدًا من جماهير غفيرة من المواطنين فى أداء الشعائر الدينية ، وحرصًا متناميًا من الرجال والنساء على التردد على المساجد ، وتشهد بعض المساجد فى العديد من الأحياء آلافًا مؤلفة من المواطنين الذين يواظبون على أداء صلاة التراويح خلف الأئمة لفترات تصل إلى ثلاث ساعات كل ليلة ، بالإضافة إلى التهجد والاعتكاف. وتُقبل الجماهير بصفة خاصة على الإمام الذى يدعو ويكثر من الدعاء ويذرف الدموع ويجعلهم أيضًا يذرفون الدموع الغزيرة . وليس هناك اعتراض على شىء من ذلك ، فمن حق المواطنين أن يتعبدوا على النحو الذى يريدونه ، ولا يجوز لأحد أن يمنع عابدًا من التعبد بالطريقة التى يرتضيها .

وينشط كثير من الموظفين فى مكاتبهم فى هذا الشهر الكريم - على غير العـــادة فى غيره من الشهور - فى أداء صلواتهم فى مكاتبهم ، وهذا أيضًا ليس محل اعتراض ، ولكن الاعتراض ينصبُّ على الفترة الزمنية الطويلة التى يقضيها الموظف فى عبادته دون مراعاة لجماهير المواطنين الذين

(*) نشر هذا المقال بصحيفة أخبار اليوم فى ٢٠٠٦/١١/٤م .

ينتظرون قضاء مصالحهم لدى هذا الموظف أو ذاك، ولا يستطيع أى منهم أن يبدى تبرمه لسلوك الموظف المتعبد الذى لا يهتم بمصالح المواطنين. فالأولوية لدى هذا الموظف وأمثاله للعبادة ، مهما طال زمن أدائها ، وليس لمصالح المواطنين . وليس لأحد أن يبدى اعتراضًا على ذلك وإلا اعتبر عدوًا للدين . ولذلك يكتم المواطنون غيظهم ولا ينبسون ببنت شفة .

وهنا تكمن المشكلة .. فالملاحظ أن هناك انفصامًا لدى الكثيرين من المتدينين بين العمل للدين والعمل للدنيا. ففى الوقت الذى نرى فيه حماسًا دينيًا شديدًا ومتزايدًا لدى الكثيرين لا نجد لديهم فى المقابل أدنى اهتمام بالعمل من أجل مصالح الدنيا التى نعيش فيها والتى خلقها الله لنا لنعمرها بالخير ونثريها بالعلم ونبنيها بالعمل وننشر فيها الأمن والسلام للبشر جميعًا .

وتلك هى مشكلة عالمنا الإسلامى ، فالانسحاب من الدنيا والانكفاء على الذات والاستغراق فى العبادة يؤدى فى تصور هؤلاء إلى رضا الله والفوز بالآخرة ، وهذا – فى نظرهم – هو المطلوب ، أما العمـــل للدنيا وإعمارها فهذا أمر لا يدخل فى قائمة الأولويات ولا يحظى بأى قدر من الاهتمام .

وقد أدى هذا الانفصام إلى ما تعانيه الأمة الإسلامية من تخلف لا تخطئه العين فى شتى أنحاء العالم الإسلامى ، حتى فى بعض الدول الإسلامية التى لديها وفرة فى الثروة . نجد فيها التراخى فى العمل أكثر من غيرها . على الرغم من القشرة الحضارية الظاهرية المستوردة التى قد يلحظها المرء هنا أو هناك .

لقد شهدت فى موسم الحج ــ على سبيل المثال ــ أنهارًا من البشر تفيض من عرفة إلى المزدلفة سيرًا على الأقدام ، يسيرون فى مشهد مهيب، يميز لباسهم اللون الأبيض، ويفيضون كماء النهر فى نظام لا يعكره نزاع أو صدام .

فإذا ما انتهى موسم العبادة - فى رمضـــان أو فى الحج - يلحظ المـــرء انخفاضًا فى درجة الحماس الدينى من ناحية ، ولا يجد لهذا الحماس مردودًا إيجابيًا على سلوك الناس من ناحية أخرى. وذلك على الرغم من أن هدف جميع العبادات من صلاة وصـــيام وزكاة وحج هو تطهير النفس الإنسانية من كل خُلُق ذميم وإقبالها على كل خُلُق حميد وتوجيه المؤمنين إلى كل عمل يخدم الحياة الدنيا ويزرع فيها الأمل ويدفع بها إلى الازدهار والتقدم والارتقاء .

إن الإســـلام - دين الوسطية والاعتدال - لا يريد منا أن نعمل للآخرة على حساب الدنيا ولا أن نعمل للدنيا على حساب

الآخرة ، وإنما نعمل من أجلهما معًا فى تناسق وانسجام كما يقول القرآن الكريم :

﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْأَخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ﴾ (١) .

وكما جاء فى الآثار المروية :

[اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدًا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدًا] (٢) .

وتقديس الإسلام للعمل من أجل الدنيا نراه ــ على سبيل المثال ــ فى الحديث الشريف الذى يقول :

[إذا قامت الساعة وفى يد أحدكم فسيلة (شجيرة صغيرة) فإن استطاع ألا يقوم حتى يغرسها فليفعل] (٣) .

ويرمز هذا الحديث إلى أهمية استمرارية العمل من أجل خير الدنيا حتى آخر نفس فى حياة الإنسان. وقد رأى النبى عليه الصلاة والسلام رجلاً يتحرج من مد يده للسلام عليه نظرًا للشقوق الكثيرة فى يده من كثرة العمل ، فقال له الرسول ﷺ :

[هذه يدٌ يحبها الله ورسوله] .

---

(١) سورة القصص : ٧٧ .
(٢) النهاية فى غريب الأثر .
(٣) مسند الإمام أحمد .

والعمل المطلوب فى الإسلام يشمل جميع مناحى الحياة ، والكل مطالب بالعمل الذى يبنى ولا يهدم ، ويعمر ولا يخرب ، ويرتقى بالحياة ويدفع بها إلى الأمام . وكل فرد مسئول عن أداء واجبه فى هذا الصدد والإسهام بما يستطيع أن يقدمه من خير للناس حتى ولو كان مجرد ابتسامة كما جاء فى حديث شريف :

[لا تحقرنَّ من المعروف شيئًا ولو أن تَلْقَى أخاك بوجه طَلْق] (١) . أى : بوجه بشوش ، و **[تبسمك فى وجه أخيك صدقة]** (٢) كما جاء فى حديث آخر .

والقرآن الكريم يربط فى العديد من آياته ربطًا وثيقًا بين الإيمان والعمل . فالذين آمنوا وعملوا الصالحات هم المقبولون عند الله وهم الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والإسلام دين لا يريد من أتباعه أن ينقطعوا عن الدنيا ، بل يحثهم على التسابق مع غيرهم فى الخيرات: ﴿ فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ ﴾(٣).

والحديث فى هذا الشأن يطول، وفى القرآن الكريم وفى الأحاديث النبوية زادٌ كثيرٌ لتأكيد هذه المعانى .

والسؤال المحير هنا هو : إذا كان هذا هو شأن الإسلام فما بال المسلمين قد تخلفوا عن ركب الحياة وتراجعت حضارتهم منذ قرون ؟

---

(١) صحيح مسلم .

(٢) سنن الترمذى .

(٣) سورة البقرة : ١٤٨ .

إن مما لا شك فيه أن هناك أسبابًا كثيرة لهذا التخلف ، وعلى رأس هذه الأسباب – فى رأينا – ذلك الانفصام القائم فى حياة المسلمين بين العمل للدين والعمل للدنيا ، واختزال الإسلام فى تدين منقوص يقتصر على أداء الشعائر المعروفة دون أى صلة بينها وبين العمل من أجل الدنيا ورقيها وازدهارها . فقد تخلى معظم المسلمين عن الفهم المتكامل للدين واكتفوا بفهم قاصر لمقاصده وأهدافه . ومن هنا كان توصيف مالك بن نبى لهذا التخلف بقوله :

" إن التخلف الذى تعانى منه الأمة الإسلامية ليس سببه الإسلام وإنما هو عقوبة مستحقة من الإسلام على المسلمين لتخلِّيهم عنه لا لتمسُّكهم به كما يظن بعض الجاهلين " .

والتخلى عن الإسلام هنا يعنى الفهم المغلوط لتعاليمه والبعد عن مقاصده ، الأمر الذى يبين لنا أن الإسلام دين مظلوم من أتباعه مثلما هو مظلوم من خصومه .

وإذا أراد المسلمون أن يستعيدوا أمجادهم ويكون لهم مكان فى عالم اليوم فلن يتحقق ذلك إلا بالعلم والعمل للدين والدنيا على السواء حتى يفوزوا بخيرى الدنيا والآخرة . أما التدين المنقوص المشار إليه فإنه يكاد أن يتساوى فى نهاية المطاف مع التدين الشكلى الذى يتمثل فى بعض المظاهر الخارجية والذى

لا يجدى نفعًا ولا يحقق هدفًا ولا يؤدى إلى رضا الله . فالله لا ينظر إلى صورنا وأشكالنا ، ولكن ينظر إلى قلوبنا وأعمالنا - كما جاء فى الحديث الشريف - عن النبى عليه الصلاة والسلام.

والأمر الذى يجب أن يدركه المسلمون ويستقر فى أذهانهم وقلوبهم أن العمل من أجل خير الدنيا هو فى الوقت نفسه عمل من أجل خير الآخرة ، ويندرج تحت مفاهيم العبادة والعمل الصالح والتقوى مادام يقصد به وجه الله ونفع الناس ودفع الأذى عنهم .

وبالعلم والعمل يتم لهم التمكين فى الأرض والحصول على خيراتها المدفونة فى باطنها واستغلالها الاستغلال الأمثل من أجل خير الناس . والتمكين فى الأرض بدوره من شأنه أن يؤدى إلى التمكين للدين ويعين فى الوقت نفسه على حسن أداء شعائره وتحقيق مقاصده ، كما يؤكد ذلك القرآن الكريم فى قوله تعالى :

﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ ﴾ (١) .

---

(١) سورة الحج : ٤١ .

إن المسلمين فى حاجة إلى صحوة حقيقية ترتفع فوق صغائر الأمور وهامشيات الدين وتدرك جوهر الإسلام وتعلى من شأن العقل وتمكّنه من أداء دوره الفاعل فى الحياة ، وتبتعد عن الجمود والانغلاق والانكفاء على الذات والتواكلية البغيضة ، وتتخلى عن الجرى وراء الخرافات والأوهام والدروشة الفارغة والتشدد الممقوت والتمسك بعادات وتقاليد مرذولة أُلصقت بالدين ظلمًا وعدوانًا .

وأعتقد أن أول خطوة على هذا الطريق تتمثل فى القضاء على الانفصام فى حياة المسلمين بين العمل من أجل الدنيا والعمل من أجل الآخرة ، وعقد مصالحة بينهما تتأكد بها القيم الإسلامية الدافعة لتقدم المجتمع ، وتجديد الفكر وإحياء فريضة الاجتهاد ، والتخلص من الكثير من الشوائب التى طرأت على الدين والتدين فحجبت الرؤية الصحيحة لجوهر الإسلام فى صفائه ونقائه ووسطيته واعتداله .

ويقدم شهر رمضان فى كل عام فرصة سانحة أمام المسلمين للمراجعة والتقييم وإعادة النظر والتفكير فيما آلت إليه أحوالهم والبحث عن أفضل السبل للخروج من المأزق الذى حوصر فيه المسلمون ، أو حصروا أنفسهم فيه بغير وعى ، والانفتاح على آفاق العصر ومواكبة متغيرات الحياة والمشاركة الفعالة فى

رسم مستقبل هذا العالم الذى نحن جزء منه والذى هو عالمنا جميعًا(*) .

(*) بعد أن نُشر هذا المقال فى صحيفة أخبار اليوم فى٢٠٠٦/١١/٤م كتب الأستاذ صلاح منتصر مقالاً فى عموده اليومى بصحيفة الأهرام فى ٢٠٠٦/١١/٢٧م تحت عنوان « التدين المنقوص » جاء فيه ما يلى :

كل مسلم فى قرارة نفسه يعرف أن الأمة الإسلامية تعانى تخلفًا لا تخطئه العين فى شتى أنحاء العالم الإسلامى حتى فى بعض الدول الإسلامية التى لديها وفرة فى الثروة ..

هذه الحقيقة كنت أتصور أن تكون محور اهتمامات الأمة الإسلامية والموضوع الرئيسى فيما تعقده من مؤتمرات وأبحاث ودراسات لكن - حتى ذلك - يتضح أننا تخلفنا فيه .

ولكن لماذا ؟ من القراءات الجميلة التى قرأتها فى هذا الموضوع مقال كتبه الدكتور محمود حمدى زقزوق كمواطن مسلم نشره فى أخبار اليوم (عدد ٤ نوفمبر) أتمنى لو قرأه كل مسلم وكل خطيب فى مسجد ، واستقى منه هذه المعانى والمفاهيم التى ألخصها فيما يلى :

١ - الأمة الإسلامية لا ينقصها الحماس الدينى المتزايد ففى شهر رمضان يتوافد الملايين على أداء العمرة ، وفى كل المساجد يواظب الآلاف على صلاة التراويح خلف الأئمة لفترات تصل إلى ثلاث ساعات كل ليلة بالإضافة إلى التهجد والاعتكاف وذرف الدموع الغزيرة خلف الأئمة وهم يبتهلون بأدعيتهم إلى الله .

٢ - إن هذا الحماس الدينى فى رمضان ومواسم الحج وأداء الفرائض وغير ذلك من الصور التى تؤكد حرص الملايين على العمل لدينهم ، لا يقابله نفس الحماس من نفس هؤلاء الملايين للعمل لدنياهم التى يعيشون ونعيش فيها ، والتى خلقها الله لنا لنعمرها=

= بالخير ونثريها بالعلم ونبنيها بالعمل وننشر فيها الأمن والسلام للبشر جميعًا .

٣ – إن مشكلة ملايين المسلمين انسحابهم من الدنيا والانكفاء على الذات والاستغراق فى العبادة متصورين أن هذا يؤدى إلى رضا الله والفوز بالآخرة بينما الإسلام – وهو دين الوسطية والاعتدال– لا يريد منا أن نعمل للآخرة على حساب الدنيا ، ولا أن نعمل للدنيا على حساب الآخرة ، وإنما نعمل من أجلهما معًا فى تناسق وانسجام . يقول الحق سبحانه تأكيدًا لذلك :

﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ﴾ [سورة القصص : ٧٧].

٤ – لقد أدى ذلك الانفصام فى حياة المسلمين بين العمل للدين والعمل للدنيا، واختزال الإسلام فى «تدين منقوص» يقتصر على الشعائر دون أى صلة بينها وبين العمل ، إلى تخلف المسلمين ، ولن يتحقق للمسلمين مكانهم فى العالم إلا بالعلم والعمل للدين والدنيا على السواء .

٥ – باختصار شديد : التدين الكامل هو الموازنة بين احتياجات الآخرة واحتياجات الدنيا ، وغير ذلك يكون التدين منقوصًا !.

وقد أعادت صحيفة Egyptian Gazette نشر مقال الأستاذ صلاح منتصر بالإنجليزية .

(٢)

الفهم المغلوط للدين

فى خضم النزاعات التى شهدها التاريخ الإسلامى زمن الفتنة الكبرى التى بدأت أثناء خلافة عثمان بن عفان واستمرت فى خلافة علىّ رضى الله عنهما، والحروب الدموية التى خاضها الخوارج ضد الإمام علىّ وأنصاره ، سأل بعض الخوارج من العراق عبد الله بن عمر عن الحكم الشرعى فى الصلاة فى ثوب علق به دم البراغيث . فقال : عجبًا لكم يا أهل العراق ، تقتلون الحسين بن علىّ وتسألون عن دم البراغيث ؟! فهم يرتكبون أعظم الجـرائم ويستحلُّون قتل النفس التى حرَّم الله قتلها إلا بالحق ثم يتمسكون بالأمور الهامشية ويحرصون على معرفة الحكم الشرعى فيها وكأنها هى الدين .

وفى حادثة أخرى قتل الخوارج عبد الله بن خبَّاب بن الأرت وبقروا بطن امرأته وكانت حاملاً لا لسبب إلا لأنه لم يكن يعتقد معتقدهم فى الإمام علىّ ، فقد أثنى عليه عندما سألوه عنه . وبعد أن فرغوا من فعلتهم ذهبوا إلى صاحب نخل ليشتروا منه نخلة ــ وكان رجلاً نصرانيًا شهد ما اقترفوه ــ فقال: هى لكم، أى: هذه هدية منى إليكم، فكان ردهم: لا، نحن لا نأكل أموال الناس

بالباطل، والله ما كنا لنأخذها إلا بثمن. فقال الرجل: ما أعجب هذا ! أتقتلون مثل عبد الله بن خبَّاب ولا تقبلون منا نخلة؟[1] .

ومن المعروف عن الخوارج مواظبتهم على صلاتهم وصيامهم وقيامهم وحرصهم الشديد على التمسك بشعائر الدين الظاهرية . وعلى الرغم من ذلك كانوا يستحلُّون قتل الأبرياء من خصومهم الذين يختلفون معهم فى رأيهم فى علىّ ﷺ .

ويعبر هذان المثالان عن مدى الانفصام الحاد لدى هؤلاء بين التدين والسلوك . فالإسلام ليس مجرد شعائر تؤدى وإنما هو سلوك شامل لكل جوانب الحياة ، هو قيم تترجم إلى أعمال تغـرس الخير فى كل مكان ، هو حفاظ على الحرمات وعلى رأسها حرمة النفس الإنسانية .

ولا يزال هذا السلوك غير السوىّ سائدًا لدى بعض جماعات من المسلمين الذين يحرصون على حفظ القرآن الكريم وأداء الشعائر والالتزام الشديد بالشكليات التى لا أهمية لها فى الدين ، ومع ذلك يسلكون مسلك أسلافهم فى قتل معارضيهم فى الرأى بدم بارد دون رحمة أو شعور بالذنب .

وهذا الانفصام الحاد فى سلوك هؤلاء وأمثالهم يمثل مشكلة كبرى فى حياة الأمة الإسلامية. وتتمثل هذه المشكلة فى اختزال

---

(١) راجع : تاريخ المذاهب الإسلامية للشيخ محمد أبى زهرة ص٦٢، ٦٣ ــ دار الفكر العربى .

الإسلام فى بعض الجوانب الشعائرية ، وإهمال جوانب أخرى أكثر أهمية وأشد إلحاحًا وأعمق تأثيرًا فى حياة الأمة .

وهناك ــ للأسف الشديد ــ بعض من لديهم استعداد لإثارة معركة كبرى من أجل قضية لا أهمية لها ظنًا منهم أنها هى الدين . ومن أمثلة ذلك قضايا النقاب والسواك والجلباب القصير ومقدار اللحية وما شاكل ذلك من أمور هامشية تثار من أجلها معارك تبدد أوقات الأمة وتشغلها عن قضاياها المصيرية .

وأذكر أننى دخلت ذات مرة أحد المساجد لصلاة الجمعة فوجدت رجلاً يبدو من مظهره أنه متدين ، ولكنه – للأسف الشديد – كان يثير مشكلة لا لزوم لها ، وكان منفعلاً بدرجة حادة محدثًا ضوضاء فى المسجد تشوش على المصلين . وفى غمرة غضبه راح يقسم بأيمان مغلظة أنه لن يصلى فى هذا المسجد لأن الصلاة فيه باطلة ، وسبب البطلان – فى نظره – يرجع إلى أن أذان الظهر يرفع فى المسجد يوم الجمعة مرتين : أولاهما عندما يحين وقت الظهر ، وثانيهما بعد أن يصعد الإمام المنبر . وهذا فى رأيه حرام وباطل ومخالف للسنة . وقد حاول المصلون أن يهدئوا من ثورته دون جدوى . وخرج الرجل من المسجد دون أن يصلى .

والمعروف أن هذا الأذان الثانى أمر قائم منذ عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان. وليس فيه أى خروج على تعاليم الإسلام ولا ضرر فيه على الدين والمتدينين . فالأذان أولاً وأخيرًا شكل

من أشكال الذكر لله ، وفى الوقت نفسه تذكير للناس بدخول وقت الصلاة . وكان عثمان بن عفان قد لاحظ أن بعض الناس لا يسمعون الأذان الأول فأمر بالأذان الثانى ليسمعه من لم يسمع الأذان الأول ، وأقره الصحابة على ذلك ، وظل تقليدًا حميدًا لا ضرر منه حتى الآن . ولكن ضيق الأفق من شأنه أن يولد التعصب والتشدد الممقوتين ، فى حين أن الإيمان الحق من شأنه أن يشيع التسامح والألفة والمحبة بين الناس .

ولا يدرك هؤلاء المتشددون أن هناك سُلَّمًا للأولويات . فالسُّنَّة غير الفريضة والمندوب غير الواجب ، والضرورات لها أحكام تقتضيها ، والدين قائم على التيسير ، ومصالح الأمة لها أولوياتها ، ودرء المفاسد مقدَّم على جلب المصالح . ومقاصد الشريعة يجب مراعاتها ولا يجوز أن نختار من بينها ما يحلو لنا وفقًا لأهوائنا وتوجهاتنا الفكرية أو السياسية أو الحزبية أو غيرها .

ومن هنا فإن المجتمع الإسلامى فى حاجة ماسة إلى إعادة ترتيب هرم الأولويات الذى قلبه المتشددون الجاهلون رأسًا على عقب ، فأساءوا إلى الإسلام والمسلمين .

إن الإسلام عقيدة وشريعة وأخلاق وحضارة ، ولا يجوز بأى حال من الأحوال اختزال الإسلام فى عنصر واحد أو أكثر وإهمال بقية العناصر ، فهذا يُعد جناية فى حق الدين والدنيا

على السواء . فالإسلام كل لا يتجزأ ، والقرآن الكريم حذَّرنا من أن نؤمن ببعض الكتاب ونكفر بالبعض الآخر فى قوله تعالى :

﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ﴾[1].

لقد جاء فى بعض الأحاديث النبوية أن "امرأة دخلت النَّارَ فى هرة حبستها فلا هى أطعمتها ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض "[2] على الرغم مما كان يبدو من صلاح هذه المرأة وتقواها . وقد ذكر للنبى ﷺ شأن امرأة تصوم وتصلى وتزكى ولكنها تؤذى جيرانها بلسانها، فقال : هى من أهل النار، لأن الدين كما هو شعائر مفروضة هو أيضًا أخلاق والنبى ﷺ نفسه يقول :

[إنما بُعثت لأتمِّم مكارم الأخلاق] [3] .

والذين ينادون بتطبيق الشريعة ــ على سبيل المثال ــ لا يفهمون من ذلك إلا إقامة الحدود المعروفة . والحق أن إقامة

---

(١) سورة البقرة : ٨٥ .

(٢) متفق عليه .

(٣) رواه البخارى فى كتاب « الأدب المفرد » .

الحدود أمر ضرورى يدخل فى إطار تطبيق الشريعة ، ولكن الحق أيضًا أنه ليس كل الشريعة ، ولا يمثل أكثر من ٥% من الشريعة . فهل يجوز اختزال الإسلام فى الحدود التى قال عنها النبى ﷺ :

[ادرءوا الحدود عن المسلمين ما استطعتم ، فإن وجدتم للمسلم مخرجًا فخلُّوا سبيله ، فإن الإمام لأن يخطئ فى العفو خير من أن يخطئ فى العقوبة] (١) .

وقد كان ذلك واضحًا تمامًا فى تعامل النبى ﷺ مع ماعز الذى جاءه معترفًا باقترافه جريمة الزنا طالبًا تطبيق حد الرجم عليه. والاعتراف – كما هو معروف – سيد الأدلة . ولكن النبى ﷺ أعرض عنه فى محاولة لإثنائه عن اعترافه . وعلى الرغم من ذلك أصرَّ ماعز على اعترافه المرة تلو المرة ، حتى قال له أبو بكر: لقد اعترفت ثلاث مرات ولو اعترفت للمرة الرابعة سيقيم النبى عليك الحد ، فاعترف للمرة الرابعة ، فأمر النبى ﷺ بإقامة الحد عليه . وعندما بدأ تطبيق الحد عليه هرب فتتبعه الصحابة ورجموه حتى مات . وعندما حُكى ذلك للنبى ﷺ بدا عليه الغضب مشيرًا إلى أنه كان الأولى تركه بعد هروبه ، لأن هذا الهروب ــ فى حد ذاته ــ يُعد رجوعًا عن اعترافه يُسقط عنه الحد .

---

(١) رواه الترمذى والحاكم والبيهقى .

إن الإسلام ليس مجرد صيغ محفوظة ولا طقوس معينة ، وإنما هو دين باعث للهمم محرك للعزائم دافع إلى تحقيق الخير لكل الناس . وقد كان الصحابة إذا حفظ الواحد منهم عشر آيات من القرآن لا يغادرها إلى غيرها إلا بعد أن يعمل بما جاء فيها. وفى العالم الإسلامى اليوم ملايين من حُفَّاظ القرآن الكريم ، ولم يكن كل الصحابة يحفظون القرآن الكريم كله ، ولكنهم كانوا يدركون أهمية العمل بما جاء فى القرآن الكريم .

فماذا فعلنا نحن بهذا الكتاب الكريم ؟

لقد اختزلنا القرآن الكريم فى بعض الأمور المظهرية بجعله كتابًا نتبرك به ونضعه فى مكان بارز فى البيوت أو فى أماكن العمل، أو فى السيارات، ونقرأ به على الأموات وفى المناسبات، ونطرب لصوت هذا القارئ أو ذاك ، وما لذلك كله وأمثاله أُنزل القرآن الكريم .

لقد أُنزل القرآن ليكون منهج حياة للمسلمين يشتمل على التعاليم والقيم التى تدفع إلى الارتقاء بالحياة والنهوض بها ونشر الخير فى أرجائها، وكل ذلك من شأنه أن يؤدى إلى زيادة القرب من الله والفوز برضاه .

إن الأولوية فى الدين تتمثل فى العمل ، أى : فى ترجمة القيم إلى أفعال والتعاليم إلى سلوك ، « **فالإيمان ليس بالتمنِّى ولكن ما وقر فى القلب وصدَّقه العمل** » .

ومن هنا يخبرنا النبى الكريم ﷺ بأن الله قد غفر لرجل سقى كلبًا اشتد به العطش فى صحراء قاحلة. وإذا كان هذا جزاء مَنْ قَدَّمَ الخير لحيوان فما بال من يقدِّم الخير للإنسان ؟

إننا فى حاجة إلى تصحيح فهمنا للإسلام من أجل القضاء على الأفكار الخاطئة والمفاهيم المغلوطة التى ترسَّخت فى النفوس منذ أزمان بعيدة حتى تستقيم علاقاتنا بالله وبالآخرين وبأنفسنا وبالعالم الذى نعيش فيه .

* * *

(٣)

الإسلام والإرهاب (*)

من الآفات المنتشرة على نطاق واسع فى عصرنا الحاضر الخوض فى أمور الدين دون علم أو فقه. فالبعض حين يقرأ كتابًا أو بعض كتاب عن الدين ، أو يحفظ قدرًا قل أو كثر من القرآن الكريم، أو يحفظ بعض الأحاديث النبوية، يعتقد أنه أصبح مؤهلاً للحديث عن الدين والإفتاء فيه . وكمثال صارخ على ذلك ما سمعته من بعض هؤلاء ذات مرة يقول : لماذا نخجل من نسبة الإرهاب إلى الإسلام ؟ إن القرآن قد تحدث عن الإرهاب وضرورة الاستعداد لإرهاب العدو .

فما هى قصة هذا الإرهاب الإسلامى المزعوم ؟

لقد تحدث القرآن الكريم عن ضرورة الاستعداد لقتال الأعداء دفاعًا عن النفس ، وهذا ما فعلته وتفعله كل دولة فى سابق الأزمان وحاضرها وكذلك فى مستقبل الأيام . وفى ذلك يقول القرآن الكريم :

﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ (١) .

(*) نشر بصحيفة أخبار اليوم فى ٢٠٠٦/١٢/٢م .

(١) سورة الأنفال : ٦٠ .

والفعل (رَهِبَ) بكسر الهاء معناه خاف ــ كما توضح ذلك المعاجم العربية ــ ، فمعنى (ترهبون به عدو الله وعدوكم) أى : تخوِّفون به عدو الله وعدوكم ــ وهم كفار مكة ــ فلا يتجرؤون عليكم أو يفاجئونكم بالعدوان. فالإرهاب المقصود هنا ليس عدوانًا على أحد بأى حال من الأحوال ، وإنما هو بمثابة تخويف لردع العدو عن العدوان على المسلمين ، وبمعنى آخر : هو ضرورة اتخاذ إجراءات احتياطية وقائية لضمان أمن المسلمين ضد أى عدوان خارجى . وهذا معنى يختلف تمامًا عن معنى الإرهاب اليوم الذى يعنى الترويع والقتل والتدمير والعدوان على الآمنين والمسالمين كما هو حادث بالفعل فى عالمنا المعاصر .

وتأكيدًا لهذا الفرق الحاسم بين المعنيين نجد الآية التالية للآية السابقة تتحدث عن السلم والمسالمة : ﴿ **وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا** ﴾[1]. أى : إذا مال أعداؤكم إلى المسالمة والمصالحة فاقبل ذلك منهم . وقد كان هذا هو ما صنعه النبى ﷺ فى صلح الحديبية وغيره . ولم يكن الإسلام فى يوم من الأيام يميل إلى الحرب إلا إذا فُرضت عليه .

---

(١) سورة الأنفال : ٦١ .

والإسلام لا يقبل مطـلقًا ترويع الآمنين والاعتداء على الأبرياء والمسالمين ، ويقـرر فى صراحة ووضوح أن الحفاظ على النفس الإنسانية يُعـد أحد المقاصد الأساسية للشريعة الإسلامية ، ومن هنا يجعـل قتل النفس بغير حق بمثابة قتل للإنسانية كلها :

﴿ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾ (١) .

ومن ذلك يتضح أن الإسلام يرفض الإرهاب ــ بمعناه الشائع اليوم ــ بكل صوره وأشكاله رفضًا قاطعًا لأنه عدوان ، والله لا يحب المعتدين . وفى آية الإذن بالقتال لرد العدوان يؤكد القرآن الكريم على ذلك تأكيدًا واضحًا فى قوله تعالى :

﴿ وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ (٢) .

ومن هنا فإن نسبة الإرهاب إلى الإسلام أو وصف الإرهاب بأنه إسلامى ــ كما يفعل خصوم الإسلام ــ لا مكان له فى هذا الدين الذى جاء رحمة للعالمين .

---

(١) سورة المائدة : ٣٢ .

(٢) سورة البقرة : ١٩٠ .

إن مشكلة عالمنا المعاصر مع الإرهاب أنه قد فشل حتى الآن فى تحديد دقيق لمفهوم الإرهاب ، وقد أدى ذلك إلى الخلط الشائن بين الإرهاب والدفاع عن الحقوق المشروعة للشعوب . فأصبح المدافع عن حقوقه إرهابيًا وأصبح ينظر إلى المُعتدِى على أنه هو الضحية . وأوضح مثال على ذلك ما يجرى على أرض فلسطين .

ويشهد العالم اليوم ما يسمى بالحرب على الإرهاب ، وقد أدت هذه الحرب التى تقودها القوى العظمى فى العالم إلى توسيع دائرة الإرهاب على نحو غير مسبوق . وسياسة الحرب على الإرهاب سياسة فاشلة تمامًا لسبب بسيط وهى أنها تعالج الظاهرة من سطحها ولا يريد أصحابها أن يتعرفوا على الأسباب الحقيقية للإرهاب . وقد يكون ذلك أمرًا متعمدًا حتى يعيش العالم فى رعب مستمر وبذلك تسهل السيطرة عليه وعلى مقدَّراته .

إن الإسلام لم يكن فى يوم من الأيام على مدى تاريخه كله مساندًا بأى شكل من الأشكال للإرهاب أو العدوان على أى إنسان بصرف النظر عن دينه أو جنسه أو لونه . فالإنسان بنيان الله ، ولعنة الله مستحقة على من يهدم هذا البنيان ــ كما ورد هذا المعنى فى حديث نبوى شريف ــ . والإنسان فى نظر

الإسلام خليفة الله فى الأرض، كلَّفه الله بعمارتها وصنع الحضارة فيها وإقامة موازين العدل فى أرجائها . وقد كرَّم الله الإنسان وفضَّله على بقية المخلوقات. ومن يكرمه الله لا يجوز لأى كائن أن يمتهن كرامته أو يمسَّه بسوء .

وعلى الرغم من هذه الحقائق الدامغة فى المصادر الأساسية للإسلام فإن الإسلام يُساء إليه من جانبين : من جانب خصومه الذين يلصقون به تهمة الإرهاب ظلمًا وعدوانًا ، ومن جانب بعض أبنائه الذين يفسرون بعض نصوصه على هواهم ، ويقتطعون بعض آيات القرآن من سياقها ، ويبنون عليها ما يقومون به من أعمال حمقاء لا تمت إلى الإسلام بصلة .

إن مقاصد الشريعة الإسلامية واضحة وضوح الشمس وهى : الحفاظ على النفس والعقل والدين والمال والنسل . وهذه المقاصد الخمسة تُعد بمثابة خطوط حمراء لا يجوز المساس بها أو الاستهانة بشأنها . والإسلام جاء رحمة للعالمين كما ينص على ذلك القرآن الكريم :

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾ (١) .

---

(١) سورة الأنبياء : ١٠٧ .

ومفهوم الرحمة ومشتقاتها من أكثر المفاهيم التى وردت فى القرآن الكريم . وسور القرآن الكريم – كما هو معروف – تبدأ بالبسملة: " بسم الله الرحمن الرحيم ". وقد وصف الله نبيه محمدًا عليه الصلاة والسلام بأنه ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾(١).

إن التجنى على الإسلام لا يأتى فقط من خصوم الإسلام ، وإنما يأتى أيضًا من بعض الجاهلين من أتباعه الذين يفسرون تعاليمه وفقًا لأفهامهم المريضة وعقولهم السقيمة فيضلون أنفسهم ويضلون غيرهم أيضًا .

ونحن مطالبون بإبراز تعاليم الإسلام فى صفائها ونقائها بعيدًا عن أى تحريف أو تشويه ، ومطالبون أيضًا بأن نكون نماذج حية لقيم الإسلام النبيلة وتعاليمه السامية ، وبذلك نصون ديننا من التحريف ونقدمه فى الوقت نفسه للآخرين على حقيقته من مصـــادره الأصلية ، ونثبت لهم أن بناء السلام فى العالم لا يمكن أن يتحقق باستبعاد الإسلام والمسلمين أو تهميش دورهم ووصفهم بتهم لا أساس لها ، بل تتناقض مع تعاليم الإسلام ولا تتفق مع أهدافه ومقاصده .

---

(١) سورة التوبة : ١٢٨ .

إن الإسلام دين السلام . وقد اشتق لفظ (الإسلام) من الأصل نفسه الذى اشتق منه لفظ (السلام) ، ومن أسماء الله (السلام) ، وتحية المسلمين هي (السلام) ، والمسلم يختم صلواته الخمس كل يوم بالسلام يميناً وشمالاً ، وهذا رمز لأمنيات السلام لنصف العالم عن يمينه ولنصفه الآخر عن شماله .

إن العالم – إذن – فى حاجة إلى الإسلام لترسيخ أسس السلام والاستقرار فى هذا العالم الذى هو عالمنا جميعًا .

* * *

(٤)

تجارة الشعارات الدينية(*)

لا جدال فى أن للدين منزلة كبيرة فى نفوس المؤمنين وتأثيراً كبيراً على سلوك المتدينين. والإيمان يعنى صلة حميمة بالله خالق الكون كله بما فيه ومن فيه. ومن هنا فإن كل ما يتصل بالدين من شأنه أن يذكِّر الإنسان بهذه الصلة الإيمانية المنزَّهة عن كل غرض . والمشـــاعر الإيمانية تستمد قوتها من قوة هذه الصلة ، وتخبو جذوتها عندما تضعف هذه الصلة . ويترتب على ذلك بطبيعة الحال أسلوب التعامل مع قضايا الدين إيجاباً أو سلباً .

ومن الظواهر السلبية التى انتشرت فى الفترة الأخيرة على نطاق واسع ظاهرة استخدام الشعارات الدينية استخداماً لا يتناسب مع ما للدين من قدسية وجلال فى النفوس . وقد وصل الأمر فى ذلك إلى حد بعيد كل البعد عن أى شكل من أشكال الذوق أو الاحترام للدين ، بل يمكن القول فى صراحة ووضوح: إن الأمر قد وصل إلى حد الاتجار بالشعارات الدينية لأغراض لا صلة لها بالدين .

(*) نشر هذا الموضوع بصحيفة الأهرام فى ١٦ ديسمبر ٢٠٠٦م .

والذين يستخدمون هذه الشعارات يعرفون ما للدين من عمق عميق فى النفوس وما له أيضاً من تأثير على السلوك . ومن هنا فإنهم إذا أرادوا أن يروِّجوا لتوجهاتهم أو لتجارتهم فإنهم يلجأون إلى الدخول على الجمهور من مدخل الدين ، وهذا أمر يُعد امتهاناً للدين وتلاعباً بمقدساته .

وحتى لا يظل حديثنا فى مجال التجريد نود أن نشير إلى بعض الأمثلة الصارخة فى هذا المقام . فالمؤمنون يعرفون أن مفهوم التقوى من المفاهيم الدينية التى تعنى القرب من الله والامتثال لأوامره والبعد عن نواهيه. ومن هنا يوصف بها الذين تنطبق عليهم هذه الشروط، والذين يصفهم القرآن الكريم بالمتقين. والله سبحانه وتعالى يبين لنا فى أول سورة البقرة أن القرآن جاء ليكون « **هُدًى للمتقين** » . ولمفهـــوم التقوى وقعه المؤثر فى النفوس، وهيبته فى القلوب. ولكن البعض ينقل هذا المفهوم الذى يتصف به القريبون من الله إلى شىء آخر تماماً يتصل بالمال والتجارة فيطلقون على أحد البنوك « الإسلامية » اسم « **بنك التقوى** » .

وهذا الإطلاق فى هذا المجال يُعد امتهاناً للمفهوم الدينى للتقوى. فالمقصود من هذا الإطلاق هو جذب الناس للإقبال على تجارة معينة ، أو مؤسسة مالية محددة لأغراض تجارية لا صلة

لها بهذا المفهوم الدينى الذى ينبغى أن نحافظ عليه ونضعه فى مكانه الصحيح .

وتواصلاً مع هذا المسلسل فى إطلاق الشعارات الدينية لأغراض تجارية إطلاق البعض مفهوم " **التوحيد** " على محلات لبيع أزياء السيدات والأطفال ، أو على بعض محلات عصير الفواكه ، أو على بعض معارض السيارات . وهذا كله موجود للأسف الشديد ، وكان ينبغى على الإدارة المحلية التى تمنح التصاريح للأعمال التجارية أن ترفض منح التراخيص للمحلات التجارية التى تستخدم هذا المفهوم الدينى أو غيره من المفاهيم الدينية . ولست أدرى ما هى الصلة بين ذلك كله وبين التوحيد الذى هو السمة التى تميز الدين الإسلامى بوصفه دين التوحيد الذى لا شائبة فيه ، أى : توحيد الألوهية بلا شريك كما تعبر عن ذلك سورة الإخلاص :

﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤ ﴾ [1] .

ويلجأ البعض أيضاً إلى كتابة الركن الأول للإسلام على الزجاج الخلفى لسيارته وهو « **لا إله إلا الله محمد رسول الله** »

---

(١) سورة الإخلاص : ١-٤ .

ويضيف إلى ذلك سيفاً كبيراً ، الأمر الذى يوحى بأن الإسلام قد انتشر بالسيف ، تأكيداً للمقولة التى يروِّجها خصوم الإسلام . ولست أدرى الهدف من وراء ذلك . هل يريد هؤلاء أن يعلنوا للملأ أنهم مسلمون ومستعدون لحمل السيف للدفاع عن مقدسات الإسلام ؟ . وهل شكك أحد فى إسلامهم حتى يلجأوا إلى ذلك ؟ إن هذا لون من العبث بالشعارات الدينية . ويستوى مع ذلك كله استخدام الشعارات الدينية لتحقيق مآرب سياسية ، ومغانم دنيوية.

وهناك أمثلة عديدة لإساءة استخدام الشعارات الدينية لأغراض تجارية . ولا ننسى موجة توظيف الأموال فى العقود الأخيرة التى أطلقها البعض تحت شعارات دينية واستطاع أصحابها أن يستولوا على أموال الكثيرين من المواطنين الذين خدعتهم المظاهر الدينية والشعارات التى أطلقها هؤلاء للاستيلاء على أموال الناس . ثم تكشَّفت الحقائق وتبين الخداع وزيف الشعارات وضاعت أموال الناس هباءً منثورًا .

وهكذا وصـــل بنا الحال إلى التلاعب بالدين وخداع الجماهير بشعارات دينية . ويعتقد البعض أنه وحـــده أو الطائفة التى ينتمى إليها هم المتدينون حقًا وهم القريبون من الله ، اعتمادًا على مظاهر خادعة لا صلة لها بجوهر الدين .

إن الدين ليس أزياء معينة ، وليس لحى تطول أو تقصر ، وليس نقابًا ولا طقوسًا ، فالله لا ينظر إلى صورنا وأشكالنا ولكن ينظر إلى قلوبنا وأعمالنا – كما ورد فى الحديث النبوى الشريف – . وتقوى الله والقرب منه من المسائل التى تتصل بباطن الإنسان، وليست فى حاجة إلى الإعلان عنها برفع شعارات معينة ، أو ارتداء ملابس لها مواصفات خاصة . فمن الأحاديث التى وردت عن النبى ﷺ قوله :

[كُلْ ما شئتَ والبسْ ما شئتَ فى غير مَخِيلة (أى : كبر) ولا سَرَف] (١) .

[ورُبَّ أشعثَ أغبرَ لو أقسمَ على الله لأبرَّه] (٢) .

فأين هذا من سلوك رافعى الشعارات الدينية ؟. إن الذى سيحكم بين الناس يوم القيامة هو الله الذى لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض .

وهناك لدى البعض رغبة جامحة فى الإعلان عن تدينهم والظهور أمام الناس بمظهر الإنسان المتدين ، ولهم أن يفعلوا ذلك كما يشاءون، ولكنهم من خلال هذا المظهر نجدهم ينظرون

---

(١) رواه الإمام أحمد فى مسنده برواية أخرى تقول : **[كلوا واشربوا وتصدَّقوا والبسوا فى غير إسراف ولا مخيلة]** .

(٢) متفق عليه .

نظرة متدنية إلى غيرهم من الناس الذين لا يصنعون مثل صنيعهم ، وكأنما القرب من الله قد أصبح من احتكار فئة معينة أعطت لنفسها الحق فى الحكم على الآخرين . وهذا فى حد ذاته تطاول على الله سبحانه الذى له وحده الحق فى الحكم على الناس – كل الناس – من كل الأديان والنحَل كما جاء ذلك فى القرآن الكريم :

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ (١) .

إن هذا الاستغلال السَّيِّئ للشعارات الدينية من أجل أغراض دنيوية من الأمور المستهجنة التى يرفضها الدين الحنيف . والإسلام لا يعير أدنى اهتمام للشكليات والمظاهر الخادعة . فالأعمال بالنيَّات ولكل امرئ ما نوَى – كما جاء فى الحديث النبوى الشريف. والمطلع على هذه النيات هو الله، ولسنا مطالبين بالبحث عن نوايا الناس والتفتيش فى ضمائرهم . فالله وحده هو الذى **يعلم ما نخفى وما نعلن** (٢) .

---

(١) سورة الحج : ١٧ .

(٢) ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ [سورة إبراهيم : ٣٨] .

إن الإسلام يمقت النفاق والمنافقين ويحرِّم الرياء والمباهاة الخفية أو الظاهرة. وقد أدان الإسلام صنيع هؤلاء الذين يتباهون بإسلامهم ويعتقدون أنهم قدموا بذلك منة للنبى عليه الصلاة والسلام ، وذلك فى قوله تعالى:

﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم ۖ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾[1].

إن استغلال البسطاء من الناس برفع شعارات دينية للتأثير عليهم واستمالتهم للتعامل معهم وحدهم بوصفهم الملتزمين بالدين – هذا الاستغلال يعد جريمة دينية . والدين برىء من صنيعهم براءة الذئب من دم ابن يعقوب .

إن الدين تعاليم سامية وقيم نبيلة وسلوك متحضر وعمل صالح مجرد عن الهوى والغرض. أما اتخاذ الدين وسيلة للدعايات الرخيصة لسلعة أو مؤسسة معينة أو حزب سياسى أو ما شاكل ذلك ، فهذا سلوك ينبغى أن ننزِّه الدين عنه ، ولا نقحمه فى هذا المستنقع الذى ثبت للجميع أن الدين برىء منه تماماً كما حدث فى شركات توظيف الأموال .

* * *

(١) سورة الحجرات : ١٧ .

(٥)

تغييب العقل(*)

لقد خلق الله الإنسان وخلق معه ومن أجله بقية الكائنات مسخَّرات له لإعمار الكون وصنع الحضارة فيه ، ولكن القرآن الكريم قد أشار فى الوقت نفسه إلى حقيقة مهمة تتمثل فى أن الله قد خلق الإنسان ضعيفاً بالقياس إلى معظم الكائنات. فكيف أمكن له أن يصبح سيداً فى الأرض ومسيطراً على غيره من الكائنات؟ أليست هذه مفارقة غريبة ؟

إن الأمر هنا فى الحقيقة ليس لغزاً محيراً ولا سراً مغلقاً ولكنه يحتاج فقط إلى شىء من التوضيح للكشف عن مواطن الضعف ومواطن القوة لدى الإنسان للتعرف على الإمكانات التى أهَّلته وحده من بين كل الكائنات لتولِّى دور القيادة فى هذا العالم .

ولنبدأ أولاً بشرح أهم نقاط الضعف لدى الإنسان بالمقارنة بغيره من الحيوانات . إن مثل هذه المقارنة ستكشف لنا من غير شـك مدى ضعف الإنسان تأكيداً للآية الكريمة : ﴿ وَخُلِقَ

(*) نشر هذا الموضوع فى صحيفة أخبار اليوم فى ١٣ يناير ٢٠٠٧م .

﴿ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾[1] . فعندما نقارن الإنسان بكثير من الحيوانات نجد أنها تتفوق عليه فى كثير من الصفات والميزات. فطفولة الإنسان طويلة بالقياس إلى بقية الحيوانات ، وهو فى حاجة إلى من يرعى شئونه لسنوات حتى يستطيع أن يستقل بنفسه ، فى حين أن هناك حيوانات تستطيع أن تستقل بنفسها بعد ساعات من الولادة .

وفضلاً عن ذلك فإن القــدرات البدنية للإنسان محدودة بصفة عامة بالقياس إلى الكثير من الحيوانات التى زودها الله بقدرات حسية على السمع والبصر والشم والعَدْو تفوق ما لدى الإنسان بمراحل ، كما أن هناك حيوانات تستطيع الدفاع عن نفسها بما لديها من مخالب وأنياب ولا يستطيع الإنسان أن يتغلب عليها فى مواجهة مباشرة . ومن الميزات التى اختص الله بها الحيوانات قدرتها على تحمل تقلبات الجو من الحر والبرد ، فى حين أن الإنسان إذا تُرك عارياً تحت وطأة التقلبات الجوية فإنه يموت لا محالة .

فالحيوانات – إذن – والحال كذلك – تتفوق بصفة عامة على الإنسان فى معركة الحياة ، ومن هنا استطاعت أن تحمى

---

(١) سورة النساء : ٢٨ .

نفسها وتحافظ على نوعها منذ بدء الخليقة . ولو اقتصر الأمر على هذا النقص الحاد فى قدرات الإنسان مقارناً بالحيوانات لكان قد انقرض منذ زمن طويل .

وعلى الرغم من هذا القصور الواضح فى قدرات الإنسان فإنه قد استطاع أن يتغلب على كل الكائنات الأخرى ويخضعها لسيطرته ، واستطاع أن يغير وجه الحياة على الأرض ، وأن يصنع حضارات متتالية على مدى التاريخ ، وأن يحدث ثورات هائلة فى عالم الصناعات والاتصالات والمعلومات والتكنولوجيا، ولم يكتفِ بأن يكون مجال نشـــاطه مقتصراً على الكوكب الأرضى ، بل راح يبحث فى عالم الفضاء ويفتش عن أسراره .

فكيف استطاع الإنسان أن يفعل ذلك كله ويتغلب على كل الصعاب حتى وصل إلى ما وصل إليه ؟

إنه إذا كانت جوانب ضـــعفه متمثلة فى أمور مادية فإن جوانب قوته تتمثل فى أمر واحد لا يتوافر لأى كائن آخر فى هذا الوجود وهو **العقـــل** الذى هو أجلُّ نعمة أنعم الله بها على الإنسان . والعقل هو أثر من آثار النفخة الروحية الإلهية فى الإنسان والتى من أجلها استحق التكريم الإلهى والتفضيل على غيره من الكائنات . وفى ذلك يقول القرآن الكريم فى خطاب موجَّه إلى الملائكة :

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ (١).

إن جوهر الإنسان – إذن – هو العقل الذى يميز به الخير من الشر والنافع من الضار ، والذى به يهتدى إلى خالق الكون ويدرك أسرار الخلق ، وجلال الخالق ، ويتعرف على سنن الله فى الكون ، ويرشد إلى كل وجوه الخير ، ويصل إلى شتى المعارف والعلوم . ومن هنا وصفه حجة الإسلام الغزالى بأنه «**أنموذج من نور الله**» كما وصفه الجاحظ بأنه «**وكيل الله عند الإنسان**» .

ومن أجل ذلك فإن عـدم استخدام العقل يُعد تنازلاً من الإنسان عن إنسانيته ، ويُعد فى الوقت نفسه من أكبر الذنوب والخطايا التى يرتكبها الإنســان فى حق نفسه وفى حق الله ، والتى تؤدى به إلى موارد التهلكة ، كما يتضح ذلك من القرآن الكريم الذى هو دعوة واضحة إلى استخدام العقل وممارسة التفكير والتأمل فى آيات الله فى الكون وفى الإنســان . ولذلك يستخدم القرآن الكريم فى مئات الآيات مفاهيم تؤكد هذا المعنى حين يوجه الخطاب إلى قوم يعقلون أو يتفكرون أو يفقهون أو يتدبرون أو يوقنون أو يعلمون أو يبصــرون أو يسمعون أو

(١) سورة ص : ٧٢ ، وسورة الحجر : ٢٩ .

يذكرون . واعتمادًا على ما ورد فى القرآن الكريم فى هذا الشأن ألف المرحوم الأستاذ عباس العقاد كتابه القيم « التفكير فريضة إسلامية » .

وقد أدان الإسلام من يقلدون غيرهم تقليداً أعمى دون تفكير، أى : دون استخدام لعقولهم . ورفض النبى ﷺ التقليد بشدة فى قوله : **[لا يكنْ أحدُكم إمَّعَةً]** [1]، أى : مقلِّداً للآخرين تقليداً أعمى ؛ فالتقليد يُعد عدوًّا للعقل الإنسانى .

ومن المقاصد الأساسية للشريعة الإسلامية **حفظ العقل** ، وهذا يعنى حمايته من أى مؤثرات سلبية تعمل على تغييبه وإلغاء دوره فى التفكير من ناحية، وتمهيد السبيل أمامه لممارسة وظيفته الأساسية فى الفهم والتفكير والتمييز بين الخير والشـــر والحق والباطل والصواب والخطأ ، والإبداع فى كل مجالات العلوم والفنون من ناحية أخرى .

ودعوة الإســـلام لاستخدام العقل لا تقتصر على الأمور الدنيوية الحياتية . فهذا أمر مفروغ منه وقد أشار النبى ﷺ إلى ذلك حين قال : **[أنتم أعلم بأمور دنياكم]** [2]. فالأمور الدنيوية

---

(١) سنن الترمذى .

(٢) سبق تخريجه .

تعتمد على البحث والدراســة والتجربة، وبمعنى آخر : تعتمد على العلم بأوسع معانيه . ومن أجل ذلك لا يضع الإسلام سدودًا ولا قيودًا على مسيرة البحث العلمى .

وقد امتدت سماحة الإسلام إلى الدعوة إلى استخدام العقل فى أمور الدين ، لأن الدين نفسه لا يُفهم إلا عن طريق العقل ، لاستنباط الأحكام الشــرعية . وقد كان ذلك واضحاً فى إجابة معاذ بن جبل على سؤال النبى ﷺ له عندما أرسله قاضياً إلى اليمن : بماذا تقضى إذا عرض لك قضــاء ؟ فكانت إجابته : بكتاب الله ثم بسنة رسول الله . فإذا لم يجد فيهما اجتهد برأيه ، أى : استخدم عقله وتفكيره فى استنباط الحكم .

وفى هذا الصدد يقول الشيخ محمد عبده :

" إن العقل يجب أن يحكم كما يحكم الدين ، فالدين عُرِفَ بالعقل ، ولابد من اجتهاد يعتمــد على الدين والعقل معاً حتى نستطيع أن نواجه المسائل الجديدة فى المدنية الجديدة ، ونقتبس منها ما يفيدنا ، لأن المسلمين لا يستطيعون أن يعيشوا فى عزلة ، ولابد أن يتسلَّحوا بما تسلَّح به غيرهم ، وأكبر سلاح فى الدنيا هو العلم ، وأكبر عمدة فى الأخــلاق هو الدين . ومن حسن حظ المسلمين أن دينهم يشرح صدره للعلم ويحضُّ عليه ، وللعقل

ويدعو إليه ، وللأخلاق الفاضلة التى تدعو إليها المدنية الحاضرة " [1] .

ومن سماحة الإسلام أيضاً وتشجيعه للاجتهاد أنه جعل للمجتهد الذى يجتهد ويخطئ أجراً واحداً وللذى يصيب أجران . وعلى أساس من الاجتهاد قامت مدارس الفقه الإسلامى المعروفة، وازدهرت علوم الدين والدنيا على السواء .

ونظراً لأن النبى ﷺ قد أشار إلى ضرورة التجديد المستمر فى الأمور الدينية فى قوله :

[إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدّد لها دينها] [2] ..

فإن الاجتهاد كان الآلية التى قررها الإسلام للتجديد المستمر لمواكبة متطلبات الحياة وتطورات كل عصر . فقد كان الإسلام حريصاً كل الحرص على ألا تتجمد حياة المسلمين لأن ذلك مخالف لطبيعة الحياة وسنة الكون . فالتجديد قانون الوجود ، والمقابل للتجديد هو الجمود ، والجمود مَوَات . وقد جاء الإسلام ليكون ديناً للحياة بجميع أبعادها ، ومن هنا فإن القعود به عن

---

(١) راجع : زعماء الإصلاح للأستاذ أحمد أمين . ص٣٣٧ - دار الكتاب العربى - بيروت - (دون تاريخ) .

(٢) رواه أبو داود .

مواكبة مستجدات الحياة يُعد ضد طبيعته ويمثل جهلاً فاضحاً بتعاليمه ومقاصده .

وعلى الرغم من هـذا الموقف الواضح للإسلام فى تأكيد دور العقل وضرورة تحكيمه فى كل أمور الحياة وفى فهم أمور الدين فإن هناك تيارات معينة فى المجتمع الإسلامى تعمل جاهدة على تغييب هذا الدور الفاعل للعقل ، وإغراق المجتمع بكم كبير من المطبوعات والشـرائط والبرامج التى تشغل العقل بأمور غيبية تشل فاعليته وتعطل وظيفته التى خلقه الله من أجلها .

وهذا التغييب للعقل يعطى الفرصة لهذه التيارات لتحقيق أغراضها فى السيطرة على عقول الناس وتوجيههم الوجهة التى تريدها حتى يكونوا غير قادرين على رؤية الأمور على حقيقتها، وغير قادرين على ممارسة النقد والتمييز بين الخطأ والصواب والمعقول وغير المعقول .

وهذه التيارات التى تقوم بتضليل العقل وتغييبه عن الوعى الصحيح تكون فى الغالب ذات طابع دينى تخلط فيه بين الدين والخرافات والأوهام والدجل والشعوذات فينسى الناس جوهر الدين وينشغلون بكل ما هو غير معقول وغير منطقى ، وبالتالى غير مفيد ، الأمر الذى يشدُّ الناس إلى دوائر الجهل والتعصب والتخلف الذى نشهد آثاره اليوم فى مجتمعاتنا الإسلامية .

ومن هنا فإن من أولى أولويات العمل الإسلامى المستنير : تحرير الناس من هـذا التخلف العقلى والتردّى الفكرى وإزالة الغشـاوة التى وُضعت على عقولهم حتى يكونوا قادرين على رؤية الواقع على حقيقته ، وعلى فهم الدين فى صفائه ونقائه ، وعلى تحكيم عقولهم فى كل ما يعرض لهم من قضايا حياتية ودينية . وبذلك تكون الأمة قادرة بعقول أبنائها على الانطلاق نحو التقدم والرقىّ. وتلك مهمة أساسية تُعد على رأس الأولويات التى ينبغى أن يتحمل مسئوليتها قادة الفكر فى عالمنا الإسلامى.

ولا يجوز بأى حال من الأحوال افتعال خصومة بين الدين والعقل . فالعقل – كما يقول الإمام الغزالى – شرعٌ من داخل ، والشرع عقلٌ من خارج ، وهما متعاضدان بل متحدان . ويضيف قائلاً : " فالداعى إلى محض التقليد (فى الأمور الدينية) مع عزل العقل بالكلية جاهل ، والمكتفى بمجرد العقل عن أنوار القرآن والسنة مغرور " .

* * *

(٦)

التكافل الاجتماعى وهرم الأولويات المقلوب (*)

إن أى متأمل فى أحوال مجتمعاتنا الإسلامية يستطيع أن يتعرف بسهولة على العديد من الظواهر السلبية المنتشرة فى هذه المجتمعات والتى أصبحت بمثابة عادات متأصلة لدى الكثيرين ، ويستطيع أيضًا أن يتبين أن هناك خللاً واضحًا فى ترتيب الأولويات فى المجتمع الإسلامى ، وسوء فهم فى تقدير الظروف والملابسات التى تتفق مع تطورات الزمان والمكان ومع حاجات المجتمع الأساسية .

فالعالم الإسلامى – كما هو معروف – مصنف فى عداد الدول النامية أو المتخلفة أو الأقل تحضرًا . والمشكلات التى تحيط بعالمنا الإسلامى والتحديات التى تواجهه كثيرة ومتنوعة . ومن هنا تسعى الدول الإسلامية الحريصة على الارتقاء بشعوبها إلى اعتماد برامج تنموية فى جميع المجالات . ولكن الكثير من هذه الدول لا تسعفها الموارد المتاحة لتنفيذ الخطط التنموية المستهدفة . وهذا يعنى أنه لكى تنهض هذه الدول لابد أن تتضافر معها مؤسسات المجتمع المدنى والموسرون من المواطنين فى المساهمة فى تقديم الخدمات الضرورية للمجتمع .

(*) نشر هذا الموضوع بصحيفة الأهرام فى ٢٧ يناير ٢٠٠٧م .

ومن الطبيعى أن تكون لدى هذه المجتمعات النامية خطط طموحة ترتب أولوياتها ، فتعطى الأولوية للأهم ثم المهم ثم الأقل أهمية ، ولا تستطيع هذه الدول النامية أن تسمح لنفسها بتقديم الهامشيات على الضروريات ، فذلك ترف لا تستطيع هذه المجتمعات أن تتحمله أو تتحمل تبعاته . ولكن هناك بعض الفئات فى المجتمع لا تكترث كثيرًا بذلك كله . ومن هنا نجدها تقلب الآية أو تقلب هرم الأوليات فى المجتمع ، وتتجه للإنفاق بلا حساب فى أمور عبثية أو مظهرية أو فى أمور ثانوية لا ضرورة لها غير عابئة بما يسببه ذلك من مشكلات للدولة وللمجتمع .

ولنضرب مثالاً واحدًا صارخا له مظهر دينى يتكرر كل عام ، إذ يعمد مئات الألوف من المواطنين سنويًا إلى التوجه إلى الأراضى المقدسة لأداء فريضة الحج أو العمرة . وإذا كان المواطن يفعل ذلك لأول مرة فلا ضير فى ذلك ولا تثريب عليه. ولكن معظم هؤلاء يذهبون سنويًا لتكرار الحج أو العمرة.

وهذا التكرار يُعد من الناحية الدينية من قبيل النوافل ، أى: الأعمال التى لا ضرورة لها ، أو التى لها أهمية ثانوية . وينفق هؤلاء فى ذلك مئات الملايين من الجنيهات سنويًا . وذلك فى

الوقت الذى تشـــتد فيه حاجة المجتمع إلى العملة الصعبة التى تذهب سنويًا بمئات الملايين من الدولارات لهذه النوافل .

ويعمد البعض الآخـــر إلى الإكثار من بناء المساجد أو المعاهد الدينية تقربًا إلى الله معتقدًا أن ذلك وحده هو الطريق الأمثل للحصول على رضا الله، على الرغم من أن عدد المساجد فى مصر يبلغ حوالى مائة ألف مسجد وعدد المعاهد الدينية يزيد على ثمانية آلاف معهد .

وينسى هؤلاء أو يتناسون أن الدين قد حث على التكافل الاجتماعى وأن الفقراء والمساكين لهم حقوق على الأغنياء كما يقول القرآن الكريم :﴿ وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ۝٢٤ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ﴾[1] . والنبى ﷺ يقول : [**ما آمن بى من بات شبعانًا وجاره جائع إلى جنبه يعلم به**][2] .

ولا يجوز النظر إلى الأمور من منطلق حق مالك المال فى حرية التصرف فى أمواله دون مراعاة لأى اعتبار آخر . فهذا ليس من الإسلام فى شىء . فالعقل ينبغى أن يحكم تصرفاتنا .

---

(١) سورة المعارج : ٢٤، ٢٥ .

(٢) أخرجه الطبرانى فى المعجم الكبير عن أنس بن مالك .

وليس من العقل ولا من المنطق أن أنفق أموالى فى النوافل وأمامى أبواب كثيرة للخير تدعونى وتحثنى على أن أُسهم فيها ، وتُعد فى ظروف مجتمعنا من الفرائض .

إن المجتمع فى أشد الحاجة إلى تضافر الجهود وتعاون القادرين من أهل الخير على الإسهام فى حل مشكلاته ، وبخاصة ما يتصل بذلك من تقديم يد العون للمحتاجين وتفريج كربات المكروبين ، ومساعدة المرضى والأيتام وأطفال الشوارع وسكان العشوائيات وغيرهم من الفقراء والمساكين الذين يقول الله فيهم :

﴿ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَـٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ﴾[1] ..

ويثنى القرآن الكريم على هؤلاء :

﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[2].

---

(١) سورة البقرة : ٢٧٣ .

(٢) سورة البقرة : ٢٧٤ .

والإســـلام إذ يلفت نظرنا إلى وجوه الخير المتعددة التى ينبغى أن تكون لها الأولوية فى الإنفاق عليها ، فإنه يُعلى من شأن التكافل الاجتماعى ويعتبره ترجمة عملية للإحساس بالآخرين والشعور بحاجة المحتاجين وآلامهم والتعاطف معهم .

وعلى الرغم من وضوح تلك المشكلات الاجتماعية – وهى مشكلات لا تخطئها العين ولا تخفى على كل ذى عقل – فإن هناك كثيرين من القادرين ينفقون فضل أموالهم فى أمور ترفية مظهرية لا ضرورة لها ولا فائدة منها ترجى للمجتمع ، وإن كان لها أحيانًا مظهر دينى .

لقد فرض الله علينا الحج مرة واحدة فى العمر للقادر عليه ماديًا وبدنيًا، والعمرة واجبة لمرة واحدة ، وعند أداء الحج نؤدى فى الوقت نفسه أيضًا نسك العمرة . والنبى ﷺ لم يحج إلا مرة واحدة فقط . ولكن هناك أناسًا مدمنين للحج والعمرة . وقد قال لى أحدهم ذات مرة إنه حج ستًّا وعشرين مرة ، أما العمرة فحدِّثْ ولا حرج . فهل هذا أمر مطلوب دينيًا ؟ أم أن ذلك يُعد لونًا من ألوان الترف غير المرغوب فيه مادامت هناك أبواب كثيرة أخرى لفعل الخير فى أشد الحاجة إلى هذه الأموال المهدرة فى تكرار الحج والعمرة والتى تبلغ مئات الملايين سنويًا ؟!!

إن هــذه الأموال الطائلة التى تنفق سنويًا فى هذه النوافل يمكن أن تحلَّ الكثير من المشــكلات الاجتماعية فى مجتمعنا التنموى . فالإسهام فى بناء المدارس والملاجئ والمستشفيات وإيجاد فرص عمل للشباب ومساعدة غير القادرين من طلاب العلم والمرضى والمحتاجين وتفريج كرب المكروبين وإدخال البهجة والسرور على اليتامى والمعاقين . كل هذه الأعمال – وغيرها كثير – ثوابها عند الله أعظم من ثواب تكرار الحج والعمرة الذى هو من قبيل النوافل فى الدين .

إن آيات القــرآن الكريم تربط دائمًا بين الإيمان والعمل الصالح . والعمل الصالح ليس مساويًا لأداء الشعائر المفروضة فقط ، إنه يتسع ليشمل مد يد العون لكل الفئات التى أشرنا إليها وغيرها من الأعمال التى تخدم المجتمع وتُعلى من شأن التكافل فيه .

إن الأولوية التى يتحدث عنها القرآن الكريم فى أكثر من موضع تتمثل فى تحقيق مفهوم البر . والبر مفهوم جامع لكل الخيرات ولكل طاعة وقربة إلى الله تعالى . وفى شرح مفهوم البر يقول القرآن :

﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ

وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾[1].

ويحث القرآن فى آيات أخرى على التعاون على البر والتقوى[2] ويؤكد فى وضوح لا لبس فيه :

﴿ لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ ﴾[3].

وتلك هى الأولويات التى أكد عليها القرآن الكريم بعد الإيمان بالله ، والتى تتمثل فى إنفاق الأموال فى وجوه الخير العديدة التى أشارت إليها الآية الأولى . والأمر اللافت للنظر أن النص عليها فى الآية جاء سابقًا للصلاة والزكاة . وليس من بين هذه الأولويات على الإطلاق تكرار الحج أو العمرة .

---

(١) سورة البقرة : ١٧٧ .

(٢) سورة المائدة : ٢ .

(٣) سورة آل عمران : ٩٢ .

إن التكافل الاجتماعى فى الإسلام يأتى على رأس الأولويات لما لذلك من أثر كبير على استقرار المجتمع وترابطه وتماسك فئاته . والتكافل ينبع من الشعور بالآخرين والتعاطف معهم والإحساس بآلامهم وآمالهم . أما تكرار الحج والعمرة فإنه ينبع من الأنانية . فالمرء عندئذ لا يفكر إلا فى نفسه معتقدًا أنه فى كل مرة يغسل ذنوبه ويتطهر من أوزاره . وهذا تفكير غير سليم ولا يتفق مع أولويات الإسلام .

إن القرآن الكريم عندما يقول : ﴿ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾[1]، فإن ذلك لا يعنى بأى حال من الأحوال أن فعل الحسنات ينحصر فى تكرار الحج والعمرة . فباب الحسنات هو باب الخيرات كلها . فكل عمل صالح – دينيًا كان أم دنيويًا – هو من الحسنات التى تُذهب السيئات ما دام قد قصد به المرء وجه الله ونفع الناس ودفع الأذى عنهم .

ولكن الأمر المؤسف أن هرم الأولويات لدينا مقلوب فى كثير من جوانب حياتنا . فالهامشيات أصبح لها الأولوية والضروريات توارت وراء المظاهر الخادعة التى تتخذ لنفسها

---

(١) سورة هود : ١١٤ .

مظهرًا دينيًا زائفًا . ومن هنا يأتى هـذا الخلل الواضح فى أولويات أفعالنا وتصرفاتنا . وإذا كنا نؤمن بالله حقًا ونتبع تعاليم الدين صدقًا فإن علينا أن نعيد النظر فى أوضاعنا وتصرفاتنا واضعين مصلحة المجتمع نصب أعيننا ، فالله فى عون العبد مادام العبد فى عون أخيه ، ومن فرَّج عن امرئ كربة من كرب الدنيا فرَّج الله عنه كربة من كرب الآخـرة ، كما ورد فى الأحاديث النبوية[1] .

إن الإنفاق فى مساعدة هذه الفئات المحتاجة هو من ناحية ترجمة حقيقية لمبدأ التكافل الإسلامى – كما سبق أن أشرنا – ، ومن ناحية أخرى هو تأمين لنا جميعًا وتأمين للمجتمع بأسره ، وحماية لهذه الفئات من الوقوع فريسـة فى أيدى من لا يرحم بتجنيدهم لأغراض دنيئة لنشـر الفوضى والتطرف والإرهاب وتدمير المجتمع بالمخدرات والأعمال المنافية للآداب ، وبالتالى تدمير المجتمع كله ، وعندئذ لن ينجو أحد .

وينطبق على هـذه الأوضاع ومثيلاتها ما جاء فى بعض الأحاديث النبوية من تشبيه البشرية بأناس اجتمعوا فى سفينة تمخر بهم عباب المياه ، فكان بعضهم فى أعلاها وبعضهم فى

---

(١) انظر : صحيح مسلم ، جـ ٤/ ٢٠٧٤ .

أســـفلها . وكان الذين فى أسفلها يأخذون حاجتهم من الماء بالصـــعود المستمر إلى أعلى الســـفينة . وبعد أن تعبوا من الصعود والنزول ومضايقات من هم فى أعلى السفينة قرروا أن يخرقوا لأنفسهم خرقًا فى أسفل السفينة يستقون منه حاجتهم من الماء . ويقول الرسول عليه الصلاة والسلام :

[فإن أخـــذوا على أيديهم فمنعوهم نجـــوا جميعًا وإن تركوهم غرقوا جميعًا](١) .

* * *

(١) رواه البخارى والترمذى والإمام أحمد .

obeikandl.com

(٧)

احتكار الدين

الدين فطرة غرســها الله فى نفوس البشر جميعًا . وقد وصف القرآن الكريم هذه الفطرة بأنها ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾[١] . وأصل هذه الفطرة يرجع إلى بداية الخلق عندما خلق الله آدم أبا البشر وميزه عن بقية المخلوقات بأن نفخ فيه من روحه سبحانه . فكانت هــذه النفخة الروحية الإلهية الممتدة من آدم إلى البشر جميعًا هى أساس هذه الصلة الحميمة بين الله والإنسان ، والتى تبلورت فى الدين . فإذا اتبع الإنسان فطرته الأصلية اهتدى بهداية الدين ، وإذا خالف فطرته انحرف عن طريق الدين إلى طريق آخر .

وهدف الدين هو تنظيم علاقة الإنسان بخالق هذا الكون من ناحية ، وعلاقته بنفســه وبالآخرين وببقية الكائنات من ناحية أخرى . وذلك كله من أجل خير الإنسان . فالدين – إذن – نعمة أنعم الله بها على الإنسان . وقد زوده الله بنعمة أخرى بالإضافة إلى ذلك وهى نعمة العقل . وكلاهما – الدين والعقل – يتعاونان معًا من أجل صلاح الإنسان وسعادته فى دنياه وأخراه .

---

(١) سورة الروم : ٣٠ .

والناس جميعًا أمام الله سـواء لا فضل لأحد على آخر إلا بالتقوى والعمل الصالح. والدين اقتناع داخلى لا يتفق مع الضغط الخارجى أو الإكراه. فالإكراه فى الدين يولد منافقين لا مؤمنين. والدين ليس فى حاجة إلى نفاق المنافقين .

ولتأكيد ذلك قرر القـرآن الكريم مبدأ حرية العقيدة فى قوله : ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ ﴾[1] كما أكد ذلك فى وضوح لا لبس فيه بقوله:﴿فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ﴾[2].

وقد بين الإسلام أنه ليس هناك سلطان بشرى على عقائد الناس ، حتى النبى ﷺ ليس له سلطان على الناس فى معتقداتهم وفى ذلك يقول القرآن : ﴿ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ ﴾[3].

ويقول أيضًا : ﴿ لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ ﴾[4].

وإذا كان هذا هو الحال مع صاحب الدعوة الذى أرسله الله للعالمين بشيرًا ونذيرًا فمن باب أولَى لا يجوز لأى سلطة بشرية

---

(١) سورة البقرة : ٢٥٦ .

(٢) سورة الكهف : ٢٩ .

(٣) سورة المائدة : ٩٩ .

(٤) سورة الغاشية : ٢٢ .

أيًّا كانت أن تكون رقيبة على الناس فى معتقداتهم . فهذا أمر من شأن خالق الكون رب البشر .

وعلى الرغم من وضوح موقف الإسلام فى هذا الصدد فإن هناك بعض الفئات المتشددة فى المجتمع الإسلامى تعطى لنفسها سـلطانًا على معتقدات الناس لم يعطهِ الله لنبيه . ويتمادى هذا البعض فى احتكار القوامة على الدين وعلى معتقدات البشر ، ويصل الأمر إلى سَوْقِ الناس سَوْقًا بالإكراه إلى أداء الشعائر . وهذا أمر مخالف للدين مخالفة صريحة. فالالتزام الشكلى بتعاليم الدين لا قيمة له ولا خير فيه . ومن هنا نجد الشيخ محمد عبده يقول :

" إن الله لم يجعل للخليفة .. ولا للقاضى .. ولا للمفتى .. ولا لشيخ الإسـلام أدنى سلطة على العقائد وتقرير الأحكام .. ولا يسوغ لواحد منهم أن يدَّعى حق السيطرة على إيمان أحد أو عبادته لربه وينازعه طريق نظره". ويضيف الشيخ قائلاً: "فليس فى الإسلام سلطة دينية سوى سلطة الموعظة الحسنة والدعوة إلى الخير والتنفير عن الشر ، وهى سلطة خوَّلها الله لأدنى المسلمين يقرع بها أنف أعلاهم ، كما خوَّلها لأعلاهم يتناول بها

من أدناهم.. وليس لمسلم مهما علا كعبه فى الإسلام، على آخر، مهما انحطت منزلته فيه ، إلا حق النصيحة والإرشاد "[1] .

وهذا يعنى أنه ليس من حق إنسان كائنًا من كان أن يدَّعى لنفسه سلطة على عقيدة أحد ، فذلك أمر متروك لله وحده الذى شرع الدين للناس : ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ ﴾[2].

وعلى الرغم من ذلك فإن تلك الفئات المشار إليها تتمادى فى غيها وتحتكر الدين لنفسها وتتصور أنها وحدها المالكة للحقيقة المطلقة ، زاعمة أن فهمها للدين هو الفهم الصحيح ، وأن أسلوبها فى تطبيقه هو الحق الذى لا شك فيه ، وتعتبر نفسها فى نهاية الأمر هى الوحيدة التى تمثل الإسلام ، وأن من عداها ممن لا يسير فى ركابها ليس من جماعة المسلمين ، وهنا تقوم هذه الفئات بعملية فرز وإقصاء لمن تريد ، وتسعى لفرض سلطانها على المسلمين بكل الوسائل المشروعة وغير المشروعة عملاً بمقولة أن الغاية تبرر الوسيلة . وهذا تطاول على الدين

---

(١) الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده (نقلاً عن : فتنة التكفير للدكتور محمد عمارة ص ٧) من منشورات المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ٢٠٠٦م .

(٢) سورة الزمر : ٣ .

وعلى مُشـــرِّع الدين وهو الله سبحانه وتعالى وعلى النبى ﷺ الذى أتى بالدين .

فمن الحقائق المعروفة أن أفهام الناس مختلفة ، ومداركهم متفاوتة طبقًا لمستوياتهم العقلية وظروفهم الاجتماعية وبيئاتهم الثقافية . وحين شرع الإسلام الاجتهاد لم يعطِ هذا الحق لفئة دون أخرى ، وتشجيعًا من الإسلام للاجتهاد أعطى للمجتهد – الذى توافرت لديه شروط الاجتهاد – أجران إذا اجتهد وأصاب ، وإذا اجتهد وأخطأ أعطاه أجرًا واحدًا . ولم يكن أى من أصحاب المذاهب الإسلامية الكبرى يزعم أن رأيه وحده هو الحق الذى لا مراء فيه ، وإنما كانوا يعدون آراءهم مجرد اجتهادات بشرية تخطئ وتصيب . وقد قيل للإمام أبى حنيفة ذات مرة : " هذا الذى تفتى به هو الحق الذى لا شك فيه " فقال: " لا أدرى لعله الباطل الذى لا شك فيه "[1] .

إن هـــذا الإمام العظيم لم يكن يزعم لنفسه الوصول إلى الحق الذى لا مراء فيه ، وإنما كان يعتبر اجتهاداته – كما كان يقول أيضًا – تعبر عن وجهة نظره فقط : " قولنا هذا رأى وهو

---

(١) تاريخ المذاهب الإسلامية للشيخ محمد أبى زهرة ص ٣٦٢ (دار الفكر العربى – دون تاريخ) .

أحسن ما قدرنا عليه، فمن جاء بأحسن من قولنا فهو أوْلَى بالصواب منا"[1]. وإذا كان هذا هو حال أبى حنيفة فإنه لا يجوز لأى فئة أن تعطى لنفسها حق احتكار الفهم الصحيح للدين ، وتنصِّب من نفسها قيِّمة على هذا الدين تُدخل فيه من تشاء ، وتُقصى من تشاء وفقًا لمعاييرها الخاصة ، وكأن العناية الإلهية قد كلفتها وحدها من بين كل الطوائف الإسلامية بمهمة القوامة على هذا الدين .

إن الله سبحانه جعل العلاقة بينه وبين الإنسان علاقة مباشرة لا تحتاج إلى واسطة ، كما جاء فى القرآن الكريم : ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ﴾[2]، وفى قوله : ﴿ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ﴾[3] ، وقوله : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾[4] . وغير ذلك من آيات وأحاديث نبوية عديدة تؤكد هذه المعانى .

---

(١) المرجع السابق .

(٢) سورة البقرة : ١٨٦ .

(٣) سورة غافر : ٦٠ .

(٤) سورة ق : ١٦ .

وإذا كان الدين يرفض الاحتكار فى مجال الأمور المادية التى تتعلق بحاجات المجتمع فإنه يرفض رفضًا قاطعًا الاحتكار فى المجال الروحى ، ويرفض الوصـــاية على عقائد الناس وضمائرهم . والله سبحانه وتعالى لم يخوِّل أحدًا من عباده حق التحدث باسمه عدا الأنبياء. ومن هنا فإنه لمن التطاول على حق الله أن ينصِّب فرد أو جماعة من أنفسهم متحدثين رسميين باسم الله وباسم الدين وباسم صاحب الشريعة .

إن المسئولية فى الإسلام فردية ، وكل إنسان مسئول فقط عما يصدر عنه من أفعال ومسئول عما هو مكلف به من تبعات كما جاء فى القرآن الكريم فى مواضع عديدة: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾[1] وكما جاء فى الحديث الشريف :

[كلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته ، فالإمام راعٍ وهو مسئول عن رعيته ، والرجل راعٍ فى أهـــله وهو مسئول عن رعيته ، والمـــرأة راعية فى بيت زوجها وهى مسئولة عن رعيتها ، والخادم راعٍ فى مال سيده وهو مسئول عن رعيته ، فكلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته][2] .

---

(١) سورة المدثر : ٣٨ .

(٢) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى .

أما مسئولية علماء الدين فتنحصر فى حق النصح والإرشاد فقط بعد أن يكونوا قد تفقهوا فى الدين أولاً كما جاء فى القرآن الكريم : ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ ﴾(١).

ومما تقدم يتضح لنا بنصوص قاطعة أن الإسلام قد حرر العلاقة بين الله والإنسان من أى تدخُّل من جانب البشر بأى شكل من الأشكال . فالله وحده هو المطلع على قلوب الناس وهو العليم ببواطنهم ، وهو وحده الذى سيفصل بينهم يوم القيامة – كما أكد ذلك القرآن الكريم – : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾(٢).

* * *

(١) سورة التوبة : ١٢٢ .
(٢) سورة الحج : ١٧ .